الأيام الأخيرة في حياة الدكتور محمد عمارة بين .. الفكر والذكر

د/ علي عبد العظيم علي(*)

قبل يوم الجمعة الموافق (١٢من جمادى الآخرة ١٤٤١هـ-٧ فبراير ٢٠٢٠م) كانت حياة الدكتور محمد عمارة تسير على نسقها المعهود من النشاط الدائب، والتواصل الفعَّال مع أصدقائه ومحبيه، وكان من أخريات المتابعات المبهجة له تلك التي يراقب من خلالها مؤلفاته في معرض الكتاب، والتي تجاوزت في هذا العام كل التوقعات، فتأتيه الأخبار عن أكثرها مبيعًا، وأوسعها انتشارًا، لا سيما وقد أضاف إليها هذا العام دررًا علمية تسد فراغًا هائلًا في المكتبة الإسلامية متمثلة في:

- موسوعة روائع الشيخ الشعراوي في حوار الإيمان مع الملاحدة والعلمانيين.
- محمد رشيد رضا فتاوى لها تاريخ.
- موسوعة الوعي بالتاريخ.

وأذكر أنني هاتفته في ختام معرض الكتاب ونقلت له إعجاب القارئين بالجديد من مؤلفاته، وكانت نبرات صوته يومئذ تتدفق منها البشر والسرور، وتلوح عليها علامات الرضا والاطمئنان، شاكرًا لله هذا الاختيار الموفق للعناوين والمضامين.

وفي مساء يوم الجمعة الموافق (١٢من جمادى الآخرة ١٤٤١هـ، ٧ فبراير ٢٠٢٠م) تلقيت - كغيري - رسالة مقتضبة عبر وسائل التواصل الاجتماعي من الدكتور خالد عمارة جاء فيها: «أبي الدكتور محمد عمارة مريض جدًّا جدًّا نسألكم الدعاء».

أثار هذا الخبر حالة من القلق العارم في الأوساط الثقافية، وأخذ الجميع يحاول متابعة الحال الصحية، والوقوف على تطوراتها. إلا أن رسالة نشرها الدكتور خالد عمارة مكتوبة بخط الدكتور عمارة أعادت للمتابعين قدرًا معقولًا من الاطمئنان على صحته جاء فيها:

(*) واعظ بالأزهر الشريف.

بسم الله الرحمن الرحيم

ودعاء إلى الله سبحانه وتعالى بالهدى والرشاد للأسرة والأمة.. إنه سبحانه خير مسئول وأكرم مجيب.

د/محمد عمارة

وفي يوم الاثنين الموافق (٢٢جمادى الآخرة ١٤٤١هـ -١٧ فبراير ٢٠٢٠م) تلقيت اتصالًا هاتفيًّا من الدكتور خالد عمارة يخبرني أن والده الكريم يرغب في حضوري إليه في مشفاه. كان الأمر بالنسبة لي يحمل من السرور قدر ما يحمل من التوجس، وانتظرت بلهفة عارمة لحظة لقياه لأطمئن على حالته، وما إن دخلت عليه حتى اندفعت إليه مُقَبِّلًا يديه ورأسه -كعادتي- وألفيته -رحمه الله -هاشًا باشًا -كعادته- أيضًا.

وهنا يجدر بي أن أتحدث عن الفكر والذكر في هذه الأيام الأخيرة:

أما الفكر: فإن الدكتور محمد عمارة -رحمه الله- لم ينتظر حتى أتوقف على ملابسات حالته الصحية، بل طلب مني على الفور أن أذهب لبيته لكي أحضر له الأوراق الخاصة بموسوعة «فقه الربا والمعاملات المالية في تراثنا القديم والحديث والمعاصر» وموسوعة الوعي بالتاريخ هي عبارة عن عشرين كتابًا، صدر منها في معرض الكتاب الماضي تسعة كتب، وأوصى بإتمام مراجعة الباقي منها.

وذكر لي بالتحديد أين توجد كل منهما، وما يدخل فيها وما لا يدخل، فذهبت إلى مكتبته على عجل، فألفيت أوراقه التي طلبها، وتبين لي أنه -رحمه الله- كان مرتبًا في أوراقه وكتبه كما كان مرتبًا في أفكاره وموضوعاته.

وما أن أحضرتها إليه حتى طلب مني أن أتفرغ أنا وصديقي الشيخ صلاح عبد الفتاح محمد، والذي كان يحظى عنده بمكانة مرموقة لما كان يلحظه فيه من الجد والنشاط والإخلاص في طلب العلم، -طلب منا- أن نكمل مراجعة الموسوعتين بالطريقة التي حددها، وبالمنهجية التي رسمها في الصفحات التي راجعها قبل أن يباغته المرض.

وعلى الرغم من أن حالته الصحية لم تكن تسمح له بالمزيد من الجهد إلا أنه -رحمه الله- أصر على أن نتابعه يوميًّا، أنا وصديقي، ليقف على تطورات العمل الذي كان يرجو له التمام في أسرع وقت. ومما يدل على عنايته الفائقة بكل التفاصيل الخاصة بهاتين الموسوعتين حدد تصميم الغلاف، وما يجب أن يكون موجودًا عليه حتى ينبئ عما يحمل بداخله من موضوعات وأفكار، وطلب مني أن أنقل ذلك للذين عهد إليهم بطباعة هذه الكتب.

وتلك كانت فرصة عظيمة لنقترب منه أكثر وأكثر، فكنا نجتمع أحيانًا ونتناوب أحيانًا أخرى. وبعد أن اطمأن إلى استيعابنا طريقته في المراجعة والإتمام انتقل -رحمه الله- لموسوعتين أخريين كنا نقوم بهما أنا وزميلي تحت إشرافه، فطلب أن نستمر دون كلل أو ملل، مشيرًا إلى عظيم نفعها وبالغ أثرها.

الموسوعة الأولى: تأتي تحت عنوان «الجامعة الفكرية» والتي هي عبارة عن

الأعمال الكاملة لكوكبة من الشيوخ الأزهرين والمفكرين والأدباء. وكان قد انتهى منها أعمال الشيخ عبد الجليل عيسى -رحمه الله- وكان على وشك الانتهاء من أعمال الشيخ محمد عبد الله دراز -رحمه الله- وفي طور الإعداد لأعمال عبد المجيد سليم، وعبد المنعم خلاف. ومن ثم، أمر الدكتور عمارة -رحمه الله- بإتمام هذه الأعمال وغيرها مما اتفق معنا على إنجازه في الفترة القادمة.

الموسوعة الثانية: تأتي تحت عنوان «روائع المقالات» تلك الموسوعة التي قدم لها الدكتور عمارة، وهي تعنى بكنوز المقالات التي جمعناها -أنا وصديقي- للمفكرين والمجددين من الأزهريين وغيرهم، وقد صدر منها في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠٢٠م، أول موسوعة، والتي جاء عنوانها «جهاد قلم» وهي عبارة عن كنوز من مقالات الدكتور عمارة -رحمه الله- في خمسة أجزاء.

وانطلاقًا من قناعته -رحمه الله- بأهمية هذه الموسوعة، واستشعاره الفائدة الكبرى التي تعود على القراء من مطالعتها، وقيامها باستعادة الوعي الفكري، وإنعاش ذاكرة القارئ المسلم -انطلاقًا من ذلك كله- شدد -رحمه الله- في هذه الأيام الأخيرة على استكمالها، والمضي قدمًا في إنجازها بأسرع وقت، وكنا نعرض عليه بعض الأسماء فمنها ما كان يوصي بأهميته، ومنها ما كان يومئ إلى انخفاض مستوى الفائدة منه.

ومن اللافت جدًّا أن الدكتور عمارة -رحمه الله- في أيامه الأخيرة طلب مني بمزيد من الاهتمام والعناية ضرورة جمع مقالات الدكتور مصطفى محمود -رحمه الله- في جريدة الأهرام، وقال لي بالحرف الواحد: إن مقالات الدكتور مصطفى محمود بالغة الأهمية في مواجهة الإلحاد. ولما عاودت زيارته في اليوم التالي لهذا الطلب الميمون بادرني بالسؤال عن المقالات، ولما أخبرته أنها في طريق وصولها إليَّ اطمأن وأعاد الإشادة بها وسرعة الانتهاء منها في أقرب وقت.

لله درك يا دكتور عمارة!! وأنت في فراش الموت تحمل همَّ الأمة، وتطلب من الأعمال العلمية ما يواجه تحدياتها الجسام.

وإنه على الرغم من أن النصائح الطبية كانت توصي بعدم المزيد من الجهد، إلا أنه أصرَّ على مواصلة العمل بالقدر الذي تسمح به حالته الصحية، دون تجاوز لنصائح المعالجين، ودون تفريط في مشروعه العلمي الذي نذر حياته كلها له.

وأُشهِد الله أنه لم يغب عن الوعي لحظة، ولم يتخل عن التوجيه كلما سنحت له الفرصة.

وأما الذكر؛ فإن الدكتور عمارة -رحمه الله- لم يتخل عن ذكر الله إلا لنوم أو قضاء حاجة، وكنت أحب أن أقرأ معه القرآن، قسمة بيني وبينه، أتل آية ويتلوا هو ما بعدها، أو أقرأ سورة بأكملها ويعيد هو قراءتها كاملة. وكنت أتلو عليه آيتين لطالما سمعتهما منه كلما زرته في بيته:

الأولى قوله تعالى في سورة النساء:

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

(النساء: ١٠٤)

الثانية قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(التوبة: ١٢٠)

ومن أواخر ما قرأت معه قبيل وفاته بسويعات سورتي الفاتحة والإخلاص، والصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ الواردة في التشهد.

ومن أهم ما ينبغي الإشارة إليه أنه -رحمه الله- كان دائم الذكر مع نفسه، وكنا نرقب ذلك من خلال تحريك شفتيه، وكان الذكر الأثير عنده في كل الأوقات قوله: «الحمد لله» ولما طلب منه ابنه الدكتور خالد أن يضيف إلى الحمد أنواعًا أخرى من الذكر، أصرَّ على مواصلة قوله: «الحمد لله» وكأنه بذلك يحيي نهايته بحمد الله على ما وفقه إليه من أداء رسالته والقيام بواجبه تجاه دينه وأمته.

ولم تكن هذه الخاتمة الحسنة إلا امتدادًا لرحلة طويلة مع العطاء الفكري والسمو الروحي، وقد لخص هذا المعنى الأستاذ الدكتور حسن الشافعي رئيس مجمع اللغة العربية وعضو هيئة كبار العلماء حين قال:

«كان محمد عمارة حارسًا من حراس الدين، وداعية من دعاة الحق واليقين، ويعرفه البعض مناضلًا اجتماعيًّا، ومصلحًا مصريًّا، ومفكرًا عقليًّا.

ولكنه - وتلك لحظة الختام - كان ذاكرًا لله في أكثر أحيانه، وكان في داخله صوفيًّا؛ صوفي النظرة والفكرة والتأمل والطريق.

لقد كان في الفكر الديني مع محمد عبده ومدرسته لكنه - وهذا هو الغريب - كان في الحياة الشخصية صوفيًّا دائم الذكر»

وبعد، فهذه كلمات رأيت من قبيل الأمانة أن أسجلها من خلال ما منَّ الله عليَّ به من مرافقة الدكتور محمد عمارة في فترة مرضه حتى صعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية إن شاء الله.

أسأل الله -تعالى- أن يكرم مثواه، وأن يجزيه عما قدم للإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأن ينفع المسلمين بما ترك من علوم ومعارف، إنه خير مسئول وأكرم مجيب.